من تراب الطريق (٦٣٩)

الدين والتدين (*) والموافقات بين الجماعات (١)

الإسلام دعوة عالمية وليست رسالة زعامة ، ولا مكانة ، ولا هى مقصورة على إقليم فقط من أقاليم الأرض ، لذلك كان الارتباط بين دين الإسلام وبين أمة العرب ارتباطًا تاريخيًا فقط ، يرجع إلى ظروف نشأته التى انتهت بانتشاره بين الأجناس والشعوب الأخرى ، وهو ارتباط بقى ـ لعربية القرآن والمبعث ـ على قدر أكبر من ارتباط المسيحية باليهودية ، والذى وهن منذ القرن الأول الميلادى ، وتلاه انتشار المسيحية وبقاء اليهودية حبيسة للعرقية التى فرضتها وجعلتها مقصورة عليها ؛ فحالت بينها وبين أن تكون ديانة مفتوحة كالإسلام والمسيحية .

وقد أصبح أكثر المسلمين الآن كما أصبح أكثر المسيحيين ـ لا ينتمون إلى جنس واجد أو لغة واحدة أو إلى نفس التقاليد والعادات والمشارب ، ومن قرون لم يعد كل من الإسلام ولا المسيحية إمبراطورية تشمل عموم الشعوب المنتمية إلى هذا الدين أو ذاك ـ بل صار كل منهما جزءًا فقط من تاريخ كل شعب ، وعنصرًا من العناصر التى تتكون حضاراته منها جميعًا .

والجماعات فى الحضارات ؛ معنويات وكليات فكرية بشرية خالية من العناصر الكونية ومن الشعور بالذات والإحساس بالحياة الفردية أو الجماعية.. وهى من إبداع وعى وعواطف الآدميين مع خلوها خلوًا تامًا مما لدى الآدميين من الإحساس بالحياة وبالذات والوعى .. فهى تترجم باستمرار أو قل تحدث

(*) المال فى ٣ /٤/ ٢٠١٢

آثارها فى مسار حياة الآدميين وأجيالهم ؛ وفى تقديرهم لنوع وقيمة حياتهم كما رآها ويراها وسيراها من عاشوا ـ أو يعيشون أو سيعيشون ؛ ممن جمعتهم وتجمعهم الجماعات وشملتهم وتشملهم الحضارات البشرية . وهذا الفارق الأساسى يختفى عادة فى لغات الآدميين وأفكارهم وتصوراتهم وتعاملهم وآمالهم وخيالهم ومخاوفهم .

واختفاء هذا الفارق الأساسى أدى وسيؤدى باستمرار إلى ما لدينا الآن، وفى الماضى والمستقبل ، مما لا أول له ولا آخر ـ من غموض ولبس وخلط ومغالاة وتطرف وشطط وشطح .

والدين لا يصبح دينًا عند البشر ؛ إلاّ إذا اتخذته جماعة ما دينًا لها .. ومتى اتخذته بات دينًا لها تملكه ولا يملكها .. وعلى نحوٍ ما يتأثر بأغراضها وظروفها ومشاربها وتقدمها أو تأخرها . وأهل الأديان يشعرون بتفوق الدين باعتباره دين جماعتهم أو جماعاتهم .. وهم يرضون عنه ويغضبون له على هذا الأساس .. وانتماء الجماعات المختلفة لدين معين ما ـ ليس معناه بتاتًا وحدة التدين لدى كل منها .. لأن كلاً منها تتدين بطريقتها حسب ظروفها وأحوالها ودرجة نموها وتطورها . وانتماؤها مع هذا الاختلاف ـ لدين معين .. ليس إلاّ اشتراكًا فى اعتناق مبادئ عامة شديدة العمومية تختلف تطبيقاتها باختلاف الأماكن والأجناس والأزمنة والظروف . هذا الواقع لا تفطن إليه غالبية المتدينين ؛ لأن كل فريق مرتبط ارتباطًا آليًا بجماعته لا يغتفر ما يراه لدى الآخرين مخالفًا لأصولها المرعية فيها ، ويعتبر ذلك زيفًا أو فسقًا إن لم يكن كفرًا !

وهذا الفارق المهم جدًا بين وحدة الدين وبين وحدة التدين الذى يرجع إلى اختلاف المجتمعات والجماعات المنتمية إلى الدين ـ المعين ـ فى التطور والجنس والظروف .. هذا الفارق مصدرٌ وأصلٌ طبيعى لوجود مختلف المذاهب والطوائف والفرق الدينية ـ وجودًا نراه فى كل الأديان العامة التى نعرفها

الآن.. وهذه الفئات تنطوى صدورها غالبًا على عداوات أو توجسات تظهر أحيانًا وتستتر عادة ؛ رغم أنها تتلاقى فى البلاد المتحضرة ، وتتبادل اللياقات المجاملات والصلات الاجتماعية . وليس من السهل إزالة هذه الفئات والفرق من الوجود .. لأنها نواتج عواطف وأفكار ما زالت موجودة ولها من يحرصون على اعتناقها أو من ينتمون إليها نقلاً عن آبائهم ؛ ويجدون فى التخلى عنها عارًا أو ما يشبه العار !

والمسلم الآن فى نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين ، يخال أنه يطابق المسلم الذى شهد المشاهد مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم. كذلك يفعل المسيحى أو اليهودى .. وفى هذا الخيال يختزل المسلم أكثر من ألف وأربعمائة عام ، ويختزل المسيحى قرابة ألفين ، واليهودى نحو ثلاثة آلاف سنة . وحالهم فى هذا حال المصرى الذى يتخيل الآن أنه هو هو المصرى الذى كان فى عصر بناة الأهرام . وهذا القفز الهائل إلى الخلف سائد فيما بين الآدميين ؛ وليس له سند من واقعهم أو من واقع آبائهم المعروفين لهم.

إذ نحن نتغير أردنا أو لم نرد .. فينا وفى ذرارينا التى نحرص على تسميتها بأسمائنا وأسماء أهلنا وعظمائنا ، وهى تغيرات جذرية هامة جدًّا تجرى جيلاً وراء جيل .. ورغم تراكم هذه التغيرات الجذرية مختلفة المصدر والأصل ، فإنها تخفيها وحدة المكان والنسب ؛ وتخفيها القرابات صحيحة أو مدعاة ، وكذا انتقال الخبرات والتراث .. وهذه كلها أصناف وأحوال بشرية لا يتبناها الكون؛ وإنما يتبناها الوعى الآدمى وحده ويعيش عليها يقظًا ونائمًا.

هذا ونحن قبل أن نتغير فى ذرارينا دون أن نفطن ؛ نتغير نحن أنفسنا تغيرًا جسيمًا بدنيًّا ومعنويًّا ـ مرّات ومرّات .. يجرى هذا التغير فى حياة كل منا .. دون أن نشعر به حين حصوله !

من تراب الطريق! (٦٤٠)

الدين والتدين (*) والموافقات بين الجماعات (٢)

التغير فينا وفى ذرارينا ، يلازم كل فرد كان أو سيكون متى خطا خطوات من عمره ، ويجرى هذا التغير موافقًا لفرديته وأجهزتها واستعداداتها، ولكن ذاكرة كل منا لا تحتفظ بصور الملايين أو البلايين الملازمة لها ، بل تحتفظ ببعضها فقط مما يتشابه ويتكرر ويمكن أن تنتفع به حياة كل منا فى ناحية أو أخرى .. وذاكرتنا تعطى كل جنس أو نوع أو فئة من هذه الصور المتشابهة تعطيها اسمًا يجعلها متماثلة فى الوعى .. يحل بعضها محل بعض فى التذكر أو التفكير أو الإثارة ؛ ويخفى ما بينها من فروق لا تهم وعى كل منا ولا تشعر بها الذات . وهكذا ينطوى رصيد الذاكرة لدى كل آدمى على منتقى وملتقى صورٍ مجهزة مختارة لجانب من التغير أو الاختلاف الذى لا ينقطع نزوله بساحة الآدمى الفرد ما بقى حيًّا .. لأن ذلك الانتقاء أو الالتقاء أو الاختيار ـ وإن كان لا يطابق ما وقع ، فإنه يوافق وقوعه غالبًا .. وهذه الموافقة فيما يتعلق بالحياة والأحياء ـ هى المطلوبة دون المطابقة . ونحن حين نجرى وراء المطابقة بين نواميس الكون المادى وبين نواميس الحياة والأحياء ؛ نضل الطريق حتمًا لأننا نفقد الاهتداء إلى الموافقة وهى وحدها المطلوبة لنا .

وتجاهل أو إغفال هذا الفارق الأساسى بين الموافقة والمطابقة ، تجاهل متغلغل فى المعارف والتصورات والمصدقات والمعتقدات البشرية ، وقد ترتب

(*) المال فى ٤ /٤/٢٠١٢

عليه قديمًا وحديثًا الكثير من الوهم واللبس والإفراط والتفريط فى تحديد البشر لأفكارهم ومبادئهم وعقائدهم وقواعد وأداء سلوكهم فى خاصتهم وعامتهم.. فكل ما معنا من ذلك يجمع على درجات من الاختلاف والكثافة ـ يجمع دائمًا بين الصحيح وغير الصحيح والنافع والضار .. لأنه يجمع بين الواقع وبين ما لا يوافقه بل يناقضه ويعارضه من غير الواقع .. ووعى البشر وفهمهم قلما خلا أو يخلو من مثل هذا التناقض الخفى المطَّرد ؛ الذى يستره اعتياد الناس عليه أو عمق إيمانهم أو سبك العبارات التى يصاغ فيها .

وهذا علمًا بأن الموافقة حدث رهين بزمان أو مكان .. يزول بزوالهما فى الغالب الأغلب نظرًا لاختلاف الأزمنة والأمكنة .. ومن هنا كانت مغايرة حياة الأبناء لحياة آبائهم أيًا كان الاتصال بين هؤلاء وأولئك قويًا حميمًا . إذ يستحيل أن تكون الموافقة بين فردين من كل وجه وفى كل موقف أو كل وقت.. لأن هذه الموافقة لا بد أن تصطدم عندئذ بالشعور بالذات فتبتعد ؛ وإما أن تمحو ذاتًا فى ذاتٍ وهذا بعيد تصوره .

لكن الجماعات وهى كيانات معنوية بشرية ليست كونية ـ خالية بالضرورة من الحياة والوعى بالذات اللذين يملآن أفرادها .. قد يوافقها أحيانًا قديم كان متروكًا ـ فيحل محل جديد ؛ وتلتزم به الأفراد أو أغلبيتهم لأنهم طلبوه أو رغبوا فيه .. ثم تضطر إلى تركه ، لأنه كان قد فقد فعلاً صلاحيته وموافقته لحياة الناس .. وهذه تجارب تسمح بها سيطرة أو قوة الجماعات حين تستند فقط إلى الميول والمصدقات والعقائد التى تبدو سائدة أو غالبة بين الناس فى وقت ما .

ونعود فنقول إن جميع الكائنات الحية الموجودة على هذه الأرض ؛ هى موافقات وليست إلاّ موافقات بين مختلف مكونات وأجهزة الأحياء التى تنحصر بأنواعها وأصنافها وبين ماديات الأرض المتطابقة من حيث أجناسها وأنواعها فى عناصر كل منها على نحو ثابت عام .. وأن حياة الحىّ هى أمد قدرته على استمرار هذه الموافقة للمحيط التى تسمح له بالانتفاع به والاستفادة منه .

والمعرفة القابلة للنمو المطَّرد التى يمتاز بها الآدمى على غيره من الأحياء الموجودة على الأرض ، هذه المعرفة المتنامية تتيح له فرص بقاء وزيادة موافقاته مع محيطه لأمد قابل للزيادة .. وهو ما يسمى بامتداد العمر .

فحياة الأفراد موافقات طارئة الأمد وامتدادها موافقات كذلك . وانتهاؤها الذى لا ينقطع انتهاء للموافقات بموت من يموت وما يموت به من الأفراد ، وميلاد أو تكاثر الأحياء ليس إلاّ موافقات تعطى فرص الامتداد إلى حين يقصر أو يطول .. فيها تتهيأ لكلِّ فرصٌ لذلك التوالد أو التكاثر ومعها قدر من المعرفة قد يتزايد أو يتناقص على درجات ونسب مختلفة غاية فى الاختلاف لا يمكن أن يحمله إلاّ أحياء يتوارثون ولا يعرف لكل منهم بالضبط نوع ومقدار ما يرثه .

هذا التعقيد المحتوم الذى لا مفر منه ولا مهرب ، تغطيه تغطيةً تكاد تكون تامة عن عين وعقل الملتفت ـ تغطيه بساطة وآلية ما نحن غرقى فيه من الاعتياد والتكرار والرتابة والتشابه والاشتغال بمطالب الحياة من جانب كل منا وبشواغلها ومخاوفها وأطماعها !

إن انتباهنا فى أوقات يقظتنا حين يلتفت إلى ما نسميه الخير العام والواجب والصواب والحق والعدل والفضيلة ـ لا يلتفت إلى داخلنا وداخل كل منا ؛ بل ينظر إلى خارجه ليحكم ويشجب ما عند الآخرين .. لأننا لم نهذب قط انتباهنا، ولم نلتفت إلى تقويمه ، ونكاد أن لا نفطن إلى ما هو ملىء به من النزوات والخرافات والروايات والشائعات والشكايات والحماقة والسخافة والحقد .. فانتباهنا مصروف تمامًا ومن أجيال كثيرة إلى ما لا جدوى منه ؛ إلاّ استحكام التنازع والتفرق والخصومة والتعصب وانعدام الثقة والأمان وحسن النية ، والحيلولة بيننا وبين الفهم والفطنة والاستبصار والاقتدار على إمعان النظر والتأمل والتروى بإخلاص وسلامة عقل وقلب .

* * *

من تراب الطريق! (٦٤١)

الدين والتدين (*) والموافقات بين الجماعات (٣)

توزيع الموافقات على الأفراد من خلال التوالد والتكاثر يأتى متشابهًا ؛ خاصة إذا جمعتهم البيئة والوطن ؛ لكنه يستحيل أن يكون قيدًا بحبسهم فى ذات القالب أو القوالب فيسوقهم هم ونوعهم سوقًا نحو العجز والذبول والانقراض !

وأغلبنا إذ لا يفرق بين الموافقات التى قد تتهيأ أو لا تتهيأ لحياة الحىّ ؛ وبين المطابقات التى يستحيل أن تتحقق للأحياء ـ إنما يقع فى أسر الأفكار والأحكام العامة عمومًا مطلقًا .. هذه الأفكار والأحكام التى نتداولها بفعل الاعتياد وتأثير التقليد والمحاكاة دون أن نتوقف لنعرف صدقها أو حدود صدقها من الخبرات والتجارب التى مرت بنا أو بمن نثق فى صدقهم من الأحياء أو الأموات .. لأن مزية الخبرات والتجارب للآدمى أنها مؤشرات وسوابق يصحح بها ما أمكنه ـ أفكاره وآراءه وسلوكه استخلاصًا من واقع حدث وشوهد تكرارًا ومرارًا . والآراء والأفكار العامة المألوفة فى حياة الناس المعتبرة صحيحة وسليمة وفقًا لعصرهم وظروفهم ـ لا تجاوز هذه الحدود المعقولة الخالية من الإفراط أو التفريط .. ومن ذلك وصايا الآباء للأبناء بالأمانة والصدق ورعاية صلة الرحم ، والرفق بالصغير واليتيم والضعيف . والإحسان للجار والغريب .. واعتبارهم ذلك من موافقات العناية الشاملة التى تعمهم والجماعة مهما كان من سوء أمرهم .. لا يكفون عن ذلك الإيصاء

(*) العمال فى ٥ /٤/٢٠١٢

ولا عن رجاء أن يكون خلفهم أفضل منهم وأكثر توفيقًا . وهذا المسعى الدائب على الإرشاد ليس إلاّ وليد خبرات وتجارب عريقة فى القدم لجماعات حريصة على العيش فى سلام ؛ يقابله مسعى مضاد فى الجماعات البدوية التى هى أقرب إلى العصابات التى تعيش فى غارات وثارات وحروب وخطف ونهب وتشريد وتثريب ـ إلى أن تجد من يحملها على حياة الاستقرار فى حدود وضوابط وأصول وأخلاق !

إن الآدميين بالتأكيد أكثر الأحياء اعتمادًا على الموافقات واحتياجًا إلى دوام تحريها والحفاظ عليها بالسعى المطّرد إلى زيادة التفاتهم للفهم والقدرة على الملاحظة والمراجعة والتصحيح وعدم ادّخار الجهود التى تمكنهم من الوقوف على أسباب هذه الموافقات التى ما زالت خافية يحجبها عدم الفهم والالتجاء إلى الخيالات والأشواق والمخاوف .

إن كثرتنا ككثرة حبات الرمل المتشابهة ؛ لكن لا يوجد فينا من يطابق الآخر .. مع أن فرديتنا لا تعيش إلاّ فى بحر المشابهة ؛ ولا يشعر أى منا بفرديته إلاّ مع من يشبهونه ممن يشاركهم ويحاكيهم ويصافيهم ويعاديهم ويرتبط بهم وينفصل عنهم .. فى محيط مشترك متشابه غير متطابق نأخذ منه ونعطيه .. متلاطم الحركة والحياة لا يبالى عادة بزوال الأفراد ولا يحول دون زوالهم .. وزوالهم لازم من لوازم فرديتهم ؛ لأنه هو نهاية قدرتهم على تلقى الموافقات اللازمة للبقاء .. وهذا البقاء يحتاج كما وصلنا إليه بالمعرفة المتعمقة والخبرة الطويلة والأجهزة بالغة الدقة ـ يحتاج إلى المحافظة على بدن الآدمى وتزويده بما قد ينقصه أو يفقده من الآلاف والآلاف بنسب ضئيلة أو غير ضئيلة من المركبات والعناصر كالإنزيمات والفيتامينات والمضادات الحيوية والأمصال والمقاومات والدواءات والمنبهات والمسكنات والمزيلات .. لأن بدن الآدمى عالم بأسره معقد شديد التعقيد والتركيب ؛ حاشد بالأجهزة التى يجب أن تقوم بأدوارها وتخصصاتها بانتظام وكفاية تلقائيًّا لكفالة بقاء هذا البدن حيًّا صالحًا للحياة ،

وإلاّ كان على الفرد أن يداوى قصور أو خلل هذه الأجهزة لمقاومة الأمراض والعلل !

لقد زدنا الآن أضعاف ما كان يعرف آباؤنا ـ زدنا معرفةً أقرب إلى الواقع بأبداننا وعقولنا ونفوسنا وبمحيطنا والكون الذى نحن جزء منه .. وهذه المعرفة حاضرة فيما نفعله أو نتجنبه وما نلجأ إليه وما نتفاداه مما لم يجد بعد طريقًا يقتنع به خيالنا ونظرتنا الأكثر اتساعًا أو تعلقًا به من نظرة السابقين والماضين التى ما زالت تأخذ بخناقنا .

وهذا على نحوٍ ما طبيعى .. فأفراد الآدميين لا يظهر نضوجهم تدريجيًّا ؛ وإنما يعلن عن نفسه فجأة بعد مرحلة تطول أو تقصر .. وهم يعبرون عن ذلك بلفظة (الاستواء) يقصدون الصلاحية للأكمل أصلاً وللتعامل مجازًا . وكذلك جماعاتهم يبدو نضجها فى عين الكل مفاجئًا ـ على صورة نهضة لم تكن متوقعة يشعر معها أفرادها حاكمهم ومحكوميهم بالاعتزاز والفخار بالانتماء إليها وبالتفوق والامتياز على غيرها من الشعوب والأمم الأخرى .. ويصحب هذا جرأة غير عادية ومزيد من الثقة فى النفس تقود أصحابها إلى نجاحات تبدو غير مألوفة ؛ ثم إلى غرور وتراخٍ وتنازع وتفكك وسلبيات لا أول لها ولا آخر !

وربما كنا مقبلين على نضوج غير مسبوق من قبل .. شامل يشمل الجماعات البشرية الموجودة كلها نتيجة الأسباب العديدة التى لا تكاد تحصر انتشار الحضارة بالسرعة المذهلة التى تنتشر بها الآن .

ويجب ألا ننسى أننا مع فروق غير كبيرة ما زلنا فى أوائل القرن الواحد والعشرين ـ ما زلنا نستعمل لغات معظم معانى ألفاظها باتت قديمة فقدت صدقها وقوتها مع فقد معاصرتها ، وأننا نحتفظ بمعظم أفكارنا وعاداتنا الفكرية التى زالت عنها أو ذهبت مصداقيتها ـ فى استعمالنا لكل ما جاء علينا من الجديد والعجيب والأقرب للواقع ـ فى جميع نواحى حياتنا الخاصة والعامة

من غـذاء وملـبس ومـسكن وعمـران ومعـارف ووسـائل وأجهـزة للإنتـاج والتوزيع والحماية والعلاج والبناء والهدم والسلم والحرب ـ برًّا وبحـرًا وجـوًّا وفضاءً .. وهو استعمال قد لا يفطن معظمنا لقصوره ونشازه لكثرة مـا يـشوبه دون أن يلحظوا عيوبه .. لكن ذلـك قمـين بـأن يـزول إذا اختلفـت المواقـف والأفكار باختلاف الأجيال والأزمنة .

* * *